الحب والجنس في القصص الشعبي

سيرة الأميرة ذات الهمّة

د. نازك سابا يارد

بين القصص الشعبي اخترت سيرة «الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطّال وعقبة شيخ الضلال وشومدرس المحتال» لأنها، على ما أظن، أقلّ شهرة من قصص **ألف ليلة وليلة** أو **سيرة عنتر**، مثلاً، ولم توضع حولها الدراسات التي وضعت حول هذين الأثرين او غيرهما من القصص الشعبي.

في الطبعة التي اعتمدتها تقع السيرة في ٦٠١٢ صفحة، مقسمة الى سبعة مجلدات، في كل منها عشرة أجزاء. وتتناول حروب العرب ضد البيزنطيين منذ العصر الأموي وحتى آخر خلافة الواثق العباسي، أي من القرن الأول وحتى القرن الثالث للهجرة. كما تصوّر الصراع بين قبيلتين قيسيتين في الحجاز: بني كلاب وبني سُلَيم. يستحيل أن يحدّد بدقة زمن وضع هذه السيرة، ولكن من المرجح أنها بدأت تروى منذ العصر الاموي وحتى عصر الواثق بالله العباسي، وأنها كانت تروى في منطقة الثغور من بلاد الشام، وقد استخرجت الدكتورة نبيلة إبراهيم عدداً من الالفاظ التي تستخدم في لغة الشام العامية.[١] إلا أن دائرة المعارف الإسلامية تؤكد ان السيرة لم تأخذ شكلها الحالي إلا بعد ذلك بكثير وبتأثير العداء للصليبيين ، وقد تجلى هذا العداء في كره رواته للمسيحيين إجمالاً. فأقدم

(١) نبيلة إبراهيم، «**سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة**»، ص ٦٣.

إشارة إلى السيرة تعود إلى القرن السادس للهجرة، الثاني عشر للميلاد.[٢] كذلك لا نعرف مؤلفاً للسيرة، ويختلف عدد رواتها بين مخطوطة وأخرى.[٣]

تبدأ القصة في العصر الأموي بالمنافسة بين القبيلتين القيسيتين. كان جَندبة بن الحارث على رأس بني كلاب، وعلى الرغم من مآثره وتفوّقه في المعارك، فضّل الأمويون مروان بن الهيثم، قائد بني سُليم، ومنحوه الإمارة على العرب. ولكن بعد وفاة جندبة خلص ابنه الصحصاح أخت مسلمة بن عبد الملك من أيدي غزاة من البدو، فمنحه الخليفة الأموي الإمارة على العرب. فترأس الصحصاح مع مسلمة بن عبد الملك القبائل العربية في حملة كبيرة على القسطنطينية، وكان الصحصاح بطل المعارك ضد الامبراطور ليو وحلفائه. بعد موت الصحصاح في رحلة صيد نشب الصراع على خلافة مركزه بين ولديه ظالم ومظلوم، وكان ظالم قد أنجب ولداً، هو الحارث، ومظلوم فتاة هي فاطمة. إلا أن بني طي خطفوا فاطمة وهي لا تزال طفلة فنشأت فيهم وأصبحت بطلة شجاعة وقوية فلُقّبت «ذات الهمة». بعد مغامرات عديدة عادت ذات الهمة إلى قبيلتها بني كلاب الذين أدهشتهم فروسيتها، وكان الحكم قد انتقل إلى العباسيين، فأقنعت ذات الهمة قومها بتأييدهم، فيما اندلعت المعارك مجدداً مع البيزنطيين. أراد الحارث أن يتزوج ابنة عمّه فاطمة، ولكنها كانت ضد الحب والزواج، فدسّ لها بنجاً نوّمها، وضاجعها، فحملت منه ولداً أسود: عبد الوهاب. ربّته ذات الهمة وحارب البيزنطيين إلى جانب والدته، فكان معها بطل هذه السيرة الشعبية الطويلة. وبطل رئيسي آخر في هذه السيرة هو أبو محمد البطّال من بني سُليم، الا أنه كان يلجأ إلى الدهاء والاحتيال لمساعدة ذات الهمة وابنها، أكثر من اعتماده على الشجاعة. وعلى نقيضه كان سلمي آخر هو القاضي عقبة اللئيم الذي اعتنق المسيحية سراً وكان حليف البيزنطيين الى أن اكتُشف سرّه وصُلب. وتنتهي السيرة بموت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب بعد أن حجّا الى مكة.

ادّعى رواة السيرة أنها «أكبر تاريخ للعرب، وخلفاء بني أمية والخلفاء العباسيين». صحيح أنها تورد بعض الأحداث التاريخية، ولا سيما فيما يتعلق بالحروب العربية البيزنطية، كحملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية (٩٧-٩٩ هـ/ ٧١٥-٧١٧ م) واشتراك البطال في هذه الحروب، ثم معركة عمورية على يد المعتصم؛ أو ثورة الخوارج ونكبة البرامكة والصراع بين الأمين والمأمون، مثلاً؛ أو

(٢) **Encyclopedia of Islam**, II: 237, 238.

(٣) Ibid. II: 238.

بناء العرب بعض الحصون غربي الفرات، مثل ملطية. وبعض شخصيات السيرة شخصيات تاريخية حقيقية، كهارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، أو عبد الوهاب والبطال وعمرو بن عبيد الله، أمير ملطية. إلا أن هؤلاء عاشوا في أوقات مختلفة فيما تجمعهم السيرة في زمن واحد؛ ومع أن البطال كان بطلاً بكل معنى الكلمة تجعله السيرة ينتصر بحيله وذكائه أكثر منه ببطولته. والعديد من الشخصيات التي تجعلها السيرة من العصر العباسي هي في الواقع من أيام الأيوبيين، كما أن اساليب التحية والألقاب والمواكب وغيرها خاصة بأيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك.(٤) هذا فضلاً عن إيرادها أحداثاً وهمية وغير واقعية أو غير معقولة. فالسيرة، إذاً، ليست تاريخاً وإنما سيرة شعبية اعتمدت الرواية الشفوية واختارت من التاريخ بعض الأحداث دون أخرى ومزجت الخيال فيها بالواقع. ولأنها سيرة شعبية فإنها تصور أماني الشعب المكبوتة، كما سنبيّن حين نعرض لقصص الحب فيها.

إن موضوع اهتمامنا في هذه المقالة هو الحب. فمع أن المعارك الدموية العنيفة وأجواء البطولة هي الغالبة على السيرة، إلا أن فيها أيضاً العديد من قصص الحب. وقد حاولنا ان نستخلص الدوافع إلى هذا الحب، مظاهره وانواعه ، مفهوم الشعب له، موقفه منه، آراءه فيه، قيمته بالنسبة اليه، دلالة هذه القصص، وما إلى ذلك من قضايا تتعلق بالحب.

١- الدوافع الى الحب في هذه القصص

أهمّ دوافع الحب في هذه القصص هو افتتان الرجل بجمال المرأة، او افتتان المرأة بجمال الرجل. فعلى نقيض ما قد يتبادر إلى الذهن فيما يتعلق بقصص من القرن الثاني عشر للميلاد نجد عدداً من النساء يتغزلن بالرجل ويعرضن عليه الحب والزواج، منهنّ، مثلاً، ميمونة بنت ملك السودان التي تيمها حب عبد الوهاب حين وقع نظرها عليه، فكتبت إليه رسالة تؤكد له فيها «إن فؤادي في قلبك أسير وان قلبي الى مشاهدتك مستطير وأنا قد عدمت رقادي ودام سهادي.»(٥) وقتالة الشجعان

(٤) في الاسس التاريخية للسيرة راجع: نبيلة إبراهيم، «**سيرة الاميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة**»، ص ٦٤-٨١ و Encyclopedia of Islam, II: 236-237.

(٥) «**سيرة الاميرة ذات الهمة**»، ٤:٤١٣ . نورد هذا الاقتباس وغيره بأسلوب رواة السيرة، على ما فيه من ركاكة وأخطاء لغوية..

هي التي تعرض على جندبة أن تتزوجه[٦] لا العكس. أما مقاييس الجمال فنجدها في وصف الراوي الملكة نورا قائلاً:

«وجهها كالقمر... بصدر كأنه مرمر ونهدان كأنهما أحقان البلور وبطن مرجرج ينتهي إلى خصر وردف كأنه برج قد خرج من سور يحمل ذلك ساقان أبيضان مدملجان وقد غاصا في كعبين ناعمين كأنهما اللجان والعقيان.»[٧] أو حين يصف جمال الأميرة زنانير «وهي غضة بضة دعجا ذات جسد ناعم رابية المعاصم عيونها أمضى من الصوارم ثقيلة الردف كأنه كثيب وهي في قامة القضيب مخدلجة القدمين وعجيزة موفرة كأنها موج البحر إذا عصفت به الرياح.»[٨] وتكاد هذه الاوصاف تتكرر في نعت كل الجميلات في السيرة.

إلا أن الجمال وحده لم يكن سبب افتتان الرجل بالمرأة. فجمال نورا سلب عقل هارون الرشيد ولكنه ازداد بها غراماً حين حادثته في قضايا فلسفية يونانية.[٩] وكانت شجاعة المرأة وقوتها من أهم ما جذب إليها الرجال الأبطال. فمعظم النساء في السيرة بطلات مناضلات أمثال الشمطاء بنت الملك الضحاك وقتالة الشجعان والملكة ألوف الرومية وملكة الكرج بخطوس، والقناصة ابنة مزاحم والملكتين نورا وزنانير الروميتين وميمونة بنت الدمدمان وعذيبة بنت البطال، وعلى رأسهن جميعاً بطلة السيرة فاطمة بنت مظلوم التي لقبت بذات الهمة. فهذه وحدها كانت تنتصر على جيوش بكاملها وتقتل بمفردها مئات المحاربين. لم ترغب ذات الهمة بالحب والزواج لانها تفردت بخدمة ربها والجهاد في سبيله منذ أن ظهر لها الرسول في منامها وهي فتاة وقال لها إنها «سيف من سيوف الإسلام.»[١٠] فآلت أن لا يضاجعها غير سيفها ودرعها.[١١] إلا أن الفروسية والشجاعة والقوة كانت من الصفات التي جذبت الرجال إلى غير ذات الهمة أيضاً. مثلاً ظلّ عامر بن الأشعث يمتنع على ابنة عمه غمرة وهي تبيّن له حبها له إلى أن غلبته في مبارزة. حينئذ طلب أن يتزوجها إلا أنها رفضته لأنها احتقرته.[١٢] كذلك زاد إعجاب عبد الوهاب بميمونة

(٦) **السيرة**، ١:٣٤.
(٧) **السيرة**، ٢: ٤٤٩.
(٨) **السيرة**، ٣: ٣٩٧.
(٩) **السيرة**، ٢: ٥٢٨.
(١٠) **السيرة**، ٥: ١٢٨.
(١١) **السيرة**، ١: ٥٣١.
(١٢) **السيرة**، ٤: ٧٢٨–٧٣٢.

حين ظهرت له قوتها وشجاعتها وفروسيتها وبدأ يحبها بعد أن كان يمتنع عليها.[١٣] وأحبّ عبد الوهاب نور النار إذ أعجب بفروسيتها وقوتها بقدر ما أُعجب بجمالها.[١٤]

ب . أنواع الحب

ا – الحب المثلي

في السيرة قصص قليلة تصور حباً مثلياً بين النساء، وقصة واحدة تشير إلى حب رجل لغلام. فالملك غضب المسيح أحب الغلام الرومي الجميل مريحنا. وبقي مع الغلام طول ليلته إلى الصباح «حتى قتل الغلام من فعله الزنيم»، ومن شدة ما جرى للغلام تفطرت مرارته ومات لوقته. فحزن عليه الملك حزناً شديداً وكتم خبر موته ودفنه سراً.[١٥] والمثليات من النساء كن أيضاً من الروم. فالملكة الرومية المسيحية الرائعة الجمال والبطلة الشجاعة ألوف تؤكد للصحصاح أنها لا ترغب في الزواج ولا في الرجال «بل يميل قلبي إلى ربات الحجال.»[١٦] وكذلك الأميرة زنانير الرومية والتي كانت هي أيضاً من الفرسان الأبطال تكرّر: « ما أنا ممن يرغب في بعل أبداً ولا يركبني فحل سرمداً لأنني مولعة بربات الحجال مستكفية بهن عن الرجال ومفتونة بالكواعب الأتراب ومشغوفة بدلالهن والإعجاب بهن فلا يأخذني بهن خجل ولا يعاب عليّ إذا خلوت بملاح النساء من بنات الملوك والأمراء.»[١٧] فألوف وزنانير كانتا بطلتين شجاعتين وذكيتين، مما يقنع الشعب بأنهما أقرب الى الذكورة منهما الى الأنوثة، لا سيما حين توضح زنانير أسباب تفضيلها النساء. إلا أن ألوف وزنانير كلتيهما غيرتا ميولهما المثلية حين أغرمتا برجل مسلم، الأولى بالصحصاح والثانية بلؤلؤ.[١٨] ولم تستمر في ميولها الشاذة الا الغزالة الجنية بنت عقهق التي تيمها حب بنت المبرقع الرائعة الجمال. فحين رضيت الغزالة الجنية أن تتزوج الصحصاح اشترطت عليه أن تسكن بنت المبرقع معهما، فاضطرّ الصحصاح إلى قبول الشرط.[١٩] فنلاحظ أن كل المثليين في السيرة من الروم، وأن النساء منهم

(١٣) **السيرة**، ٤: ٤١٧–٤١٨، ٤٥١–٤٧٥.
(١٤) **السيرة**، ٧: ٣٥–٤٥.
(١٥) **السيرة**، ٣: ٦٣٦.
(١٦) **السيرة**، ١: ٣٠٥.
(١٧) **السيرة**، ٣: ٦١٧.
(١٨) **السيرة**، ١: ٣٢٣ و ٣: ٧٥٨–٧٧٠.
(١٩) **السيرة**، ١: ٤٧٦–٤٨٣.

غيّرن ميولهن الشاذة حين اغرمن برجل مسلم. حتى الجنية رضيت أن تتزوج مسلماً فجمعت بين ميول جنسية طبيعية وأخرى شاذة، كما يحدث كثيراً في مجتمعاتنا اليوم. أما أن تخص السيرة الروم بميول جنسية شاذة فعائد، على الأرجح، إلى التأثير السلبي الذي كان للحروب الصليبية المعاصرة لتدوينها. والبرهان على ذلك أن ألوف وزنانير أقلعتا عن شذوذهما بفضل اتصالهما بالإسلام، وحتى الجنية رضيت بأن تتزوج رجلاً، وكان أيضاً مسلماً. الملك الرومي وحده ظلّ مثلياً، وهذا طبيعي إذ ظلّ ملوك الروم يشكلون القوة المعادية للمسلمين أثناء الحروب الصليبية.

٢- الرغبة الجنسية الخالصة

نادراً ما توقّفت قصص السيرة عند الرغبة الجنسية الخالصة أو وصفتها وصفاً مفصلاً. منها خبر مضاجعة فرسيس بن مطليس، ابن ملك الروم، للأميرة الرومية بطوانة. فحملت منه وخافت أن يفتضح أمرهما. فادّعت أن الحواري ظهر لها بسبب قداستها وأشار إليها بعمود فحملت منه. وأعطاها فرسيس خاتماً سحرياً تغطّ عليه الطيور حين يُفرك. فحين وضعت طفلها فركت الخاتم وغطت عليه الطيور فصدق الناس أعجوبة حملها.(٢٠)

٢(أ) - قصص الاغتصاب

ولكن في السيرة قصصاً واقعية أيضاً، منها قصص اغتصاب وقصص عن شهوة جنسية خالصة، تصفها السيرة أحياناً وصفاً مفصلاً، وقد تبيّن ما يترتب عليها من نتائج.

بعد أن مات زوج الأميرة رباب، وكانت حاملاً منه، اغتصبها العبد سلام: «تقدّم عليها ومدّ يده إليها وأراد الوثبة عليها ودفعها بين ثدييها راحت على ظهرها وأراد أن يركب على صدرها، فمن شدة الدفعة وما لحقها من الفجعة دفق عليها الدم ولحقها الطلق.» فقتلها العبد وسرق ما معها من مال وحلي وتركها مع طفلها الذي كان يرضع من ثديها.(٢١)

لكن حوادث الاغتصاب الأخرى ليست خالية من الحب أيضاً. فبطلة السيرة ذات الهمة نفسها تعرضت لاغتصاب ابن عمها الحارث بن ظالم. أحبها الحارث وازداد بها عشقاً كلما مرّت الإيام، ولكنها ظلت تمتنع عليه إلى أن دسّ لها البنج فاستغرقت في

(٢٠) **السيرة**، ٤: ٥٣-٥٤.
(٢١) **السيرة**، ١: ١٣-١٤.

نوم عميق، ودخل عليها «وواقعها إلى أن نزل دمها وبعد فراغه من قضاء حاجته تركها على حالها وخرج وهو فرحان ببلوغ الآمال.» وخاف الحارث أن تنتقم منه ذات الهمة حين تستفيق فهرب، إلا أنها كانت قد حملت منه ووضعت ابنها عبد الوهاب الذي ربته وحارب إلى جانبها حتى آخر أيامهما. لأن الولد كان أسود اتهمها الحارث بأنها أعرضت عنه لأنها كانت تحب عبداً أسود أنجبت منه هذا الولد. على الرغم من إنكار ذات الهمة هذه التهمة قرر الحارث أن يقتلها هي والولد إلا أنها تمكنت من الانتصار عليه في عدد من المعارك وفي النهاية قتله ابنه عبد الوهاب.(٢٢) وحين فتح المسلمون القسطنطينية وأسروا النساء، كانت ابنة الملك من نصيب الامير ظالم بن عبد الوهاب. أدهشه جمالها وحين رفضته مهددة بالانتحار إن هو اقترب منها نصحه أبوه بأن يبنجها ويغتصبها وهي نائمة، تماماً كما فعل أبوه بوالدته ذات الهمة. فتبع ظالم نصيحة والده ودخل عليها بعد أن خدّرها وفضّ بكارتها. ولكن حين استفاقت دخلت عليها زوجة البطال وابنته تلاطفانها وتحدثانها حتى أنست إليهما ، ورغبتاها بالإسلام، فأسلمت، وفرح ظالم بذلك فرحاً عظيماً وتزوجها.(٢٣)

٢(ب) – الشهوة والبطولة

وهناك شهوة جنسية لا يرافقها إعجاب ولا اغتصاب لأن صاحبتها ملكة قوية جداً تتعدى هي على الآخرين ولا يتعدون عليها. فملكة الكرج المسيحية القبيحة بخطوس «تحب النكاح من المغرب إلى الصباح وإن كان الرجل معها أرضاها أكرمته وأحبته... وشغلته في كل وقت وأوان، وإذا أخذه التقصير يبقى عندها طنجير وتأخذ رأسه تضعه تحت إبطها وتعصر عليه بقوة... تخرج عينيه من حدقيه وتسحق عظم صدغيه.» وحين صارعت مدلاج المسلم وجلدت به الأرض انكشفت عورته «فبان لها شيء هائل فلما رأته سالت ريالتها وتحركت شهوتها» و«طلبته للجماع فلم يقدر على الامتناع فوثب إليها... فوقع عليها مثل الحمار وأراها طعن صاحت منه: زنهار زنهار.» وظلا هكذا «إلى أن استكفت ولا بقي لها جلد ولا نفس.»(٢٤) في هذا الوصف وأمثاله نرى ميل الشعب إلى التعبير الصادق والصريح، بل الفظّ أحياناً، عن العلاقات الجنسية.

ونلاحظ أن السيرة كثيراً ما تقرن الشهوة الجنسية بالبطولة. فبطل السيرة

(٢٢) **السيرة**، ١: ٥٥٣–٥٩٤، ٦٢٧–٦٨٢.
(٢٣) **السيرة**، ٧: ١٠٠٤–١٠١٠.
(٢٤) **السيرة**، ١: ٤٠٦–٤١٠.

الثاني بعد ذات الهمة هو ابنها عبد الوهاب. فمع أنه متزوج وأب إلا أنه يشتهي كل أميرة أو جارية جميلة تقع عليها عينه. حين نافسه هارون الرشيد في الجارية الرومية الجميلة «ميرونة» دخل عبد الوهاب على الجارية وافتض بكارتها وبات «تلك الليلة عندها في أطيب عيش وأهنأه وأرغده وأسناه» متخلصاً بذلك من ردّها إلى هارون الرشيد الذي لن يرضى بجارية افتضت بكارتها.[٢٥] وحين لقي عبد الوهاب الفارسة الشجاعة القناصة ابنة مزاحم وأعجبه جمالها وقوتها وفروسيتها تزوجها وضاجعها عدة أيام ثم تركها.[٢٦] ثم وقع في غرام الملكة الرومية نورا مع أنه كان سائراً إلى بلدها لمحاربة أهلها،[٢٧] وكان هذا الحب سبب العداوة بينه وبين صديق العمر أبي محمد البطال، كما سنرى.

ولعل أكثر القصص دلالة على اقتران البطولة بالشهوة الجنسية الخالصة قصة البطلة ميمونة. تخلت عن زوجها عبد الوهاب حين أسرها ملك الروم أرمانوس، واعتنقت المسيحية لتتزوج أرمانوس. إلا أن ملك الفرنج كرفناس أسرها بعد ذلك وعشقها وأراد أن يتزوجها. مانعته في أول الأمر، «فافترسها غصباً». وحين رأت ميمونة قوته الجنسية «طاب قلبها» ونامت معه حتى الصباح وأصبح أحبّ إليها من أرمانوس، ونوت أن لا تعود إلى زوجها السابق. وحين بيّن لها البترك أن زواجها باطل لأنها زوجة أرمانوس صاحت به ميمونة وأكدت له أنه لا يصلح لمثلها إلا ملك مثل كرفناس «لأنه أوجه من أرمانوس من ثلاثة وجوه أحدها شجاعته والثاني كرمه والثالث يصلح للفراش والهراش. ولقد شاهدت في بلده ما لم أشاهد مثله لأن له مئة سريّة ما فيهن إلا من كرهته لأجل إكثاره.»[٢٨]

٢(ج) – موقف الشعب من الشهوة الجنسية الخالصة

إلا أن السيرة تبيّن ما يترتب على الشهوة الجنسية الخالصة من نتائج سلبية، وكأن الشعب ينتقد بذلك كل شهوة جنسية خالية من عاطفة الحب. فالملك يهودا فقد كل حذره من العدو حين فتنه جمال عذيبة ابنة البطال. ناداها فأخذت تتمخطر أمامه وسألته ماذا يريد. فتغزل بها وطلب منها أن تخلو به كي «يهبها شيئاً تفتخر به على الغلمان.» وحين اختليا قدمت للملك كأساً فيها منوّم وحين شربها وانقلب على

(٢٥) **السيرة**، ١: ٧٧٦.
(٢٦) **السيرة**، ٢: ٣٦.
(٢٧) **السيرة**، ٢: ٢٦٧–٢٧١.
(٢٨) **السيرة**، ٦: ٢٣٣–٢٣٧.

الأرض حملته إلى قومها المسلمين فقيّدوه.[٢٩] ولا يفقد المرء حذره من العدو فحسب، وإنما قوته أيضاً، ولو كان بطلاً. مثلاً، حين أدهش جمال الفتاة الرومية المسيحية الصحصاح وتحدّته ودعته لمصارعتها «وقد وقعت في يده على خصرها فغاصت أنامله في طيات أعكانها وهبّت عليه روائح المسك من أردافها وإذا ببطيخة عبيدي تحت دكة سروالها، عند ذلك استرخت أعضاؤه وقلّ حيله وقواه.»[٣٠] فالرغبة الجنسية الخالصة أفقدت حتى هذا البطل الصنديد قوته فهزمته فتاة قوية. وهذا ما حصل أيضاً لمسلمة حين لاصق ألوف وعانقها «ووقعت يده على خصرها فارتخت منه القوى وبقي حاير من شدة الجوى.»[٣١] وحين وقعت ذات الهمة أسيرة في يد الروم، وقد أعجب ملكهم بجمالها لأنها كانت تزداد جمالاً مع العمر، اختلى بها ومدّ يده إليها وأدخلها تحت ثيابها، فامتنعت. فجرّد سيفه عليها وهدّدها بالقتل. فسكتت، وظنّ أنها رضيت به، فألقى سيفه، فهجمت عليه وقبضت على حلقه وعصرته ومنعته من الصراخ، ثم خنقته.[٣٢] وما يحدث للأبطال من الرجال يحدث أيضاً للبطلات. فبعد أن ضاجع مدلاج المسلم ملكة الكرج بخطوس حتى استكفت ولم يبقَ فيها نفس، مع أنها كانت «تحب النكاح من المغرب حتى الصباح،» نامت. فاستلّ مدلاج سيفه وقتلها. فكان «رمحه القصير» سبب انتصار المسلمين بعد ذلك على أهل الكرج إذ كانوا قد فقدوا سطوة ملكتهم.[٣٣]

٣- الحب

٣ (أ) - الحب المقترن بالجنس

ولكن في السيرة أيضاً قصص حب طبيعي يقترن بالرغبة الجنسية. «فالأذن تعشق قبل العين أحياناً» حسب القول الشائع. وهكذا بيّنت السيرة أن مسلمة بن عبد الملك بن مروان كان يستمع إلى ما يسرده له الصحصاح عن شجاعة الملكة الرومية ألوف وجمالها وذكائها وثقافتها وعلمها، فوقع في حبها وأبى إلا أن يذهب إليها. فوجدها فوق ما وصف الصحصاح وازداد بها غراماً حين سمعها تغني، وحين

(٢٩) **السيرة**، ٧: ٧٧٧-٧٧٩.
(٣٠) **السيرة**، ١: ٣٠٢.
(٣١) **السيرة**، ١: ٣٣٣.
(٣٢) **السيرة**، ٥: ٣٥٢-٣٦٣.
(٣٣) **السيرة**، ١: ٤١١-٤١٤.

اعتنقت إلاسلام خطبها من والدها وتزوجها.[٣٤]

وتأكيداً للمثل الشعبي أيضاً يبيّن بعض قصص الحب في السيرة أن «كل ممنوع مرغوب». أحبت غمرة بنت عطارد ابن عمها عامر بن الأشعث وأطلعت الأم والدة عامر على ذلك، ففرحت المرأة بالخبر. إلا أن ابنها رفض أن يتزوج غمرة مدعياً ان شغله الوحيد هو الصيد ومنازلة الأبطال. فاحتالت أمه ليرى غمرة لعل جمالها يأسره، ولكن دون جدوى. ولم تعد غمرة تقوى على النوم والأكل، وهزلت ومرضت، ولم ينفع معها لوم والدتها. وفي أحد الأيام قالت لأمه إنها ستخرج في رحلة صيد لتروّح عن نفسها. تنكرّت بزي فارس وخرجت إلى الغابة التي يصطاد فيها ابن عمها. حين رأته أهانته وتحدّته وتصدت لمبارزته وهو لا يعرف من هي. تبارزا وتمكنت منه وألقته على الأرض وجردته من حصانه وسلاحه وملابسه وأصرت عليه أن يخلع سرواله أيضاً وتركته عارياً كما خلقه ربّه. ثم حملت أغراضه إلى دايتها وأخبرتها القصة قائلة لها أن تسأله، إذا جاءها، كيف يدعي خوض المعارك وصيد الاسود. وحين عادت إلى بيتها كانت قد شفيت من حبها وأصبح عامر أبغض الناس بالنسبة إليها. جاء عامر إلى الداية يطلب منها أن تأتيه بالملابس من بيته، فأعطته ملابسه وقالت له إن الفارس الذي غلبه ليس سوى ابنة عمه غمرة وانها تبلغه أنه كذب حين ادعى أن شغله الشاغل منازلة ألابطال وخوض المعارك، فكيف ذلك وقد غلبته جارية مدلّلة! حين سمع عامر ذلك شعر بحب شديد لابنة عمه، ومرض من شدة الحب والحزن، إلا أنه حاول عبثاً أن يستميل غمرة التي هددت بأن تقتل نفسها إن هم غصبوها على أن تتزوج عامر.[٣٥]

ومثل آخر على أن «كل ممنوع في الحب مرغوب» هو قصة الأميرة زنانير مع لؤلؤ. مع أنها كانت مثلية في أول الأمر، إلا أنها بليت بحب لؤلؤ لأنه تمنع عنها عندما عرضت نفسها عليه «فصارت لا تصبر عنه ولا تقرب منه، ولا ترغب فيه ولا تبعده، تنفيه ولا تسعفه، وترضيه وهو مع هذا جميعاً صابر كأنه مجنون بني عامر.»[٣٦] ففي هذه الجملة وصف موجز إلا أنه رائع ودقيق لدلال المرأة المتمنعة مع أنها تحب، ظناً منها، ومن الشعب أيضاً، أن تمنّعها يزيد العاشق عشقاً. وهذا ما حصل فعلاً، إلى أن تزوجت لؤلؤ في نهاية الأمر.

(٣٤) **السيرة**، ١: ٣٢٦-٣٤٢.
(٣٥) **السيرة**، ٤: ٧٢١-٧٣٢.
(٣٦) **السيرة**، ٣: ٤٣١.

وفي قصص الحب يتبيّن أن قرار زواج البنت ممن تحب كان أحياناً في يد الوالد، فيما تُركت لها حرية الخيار أحياناً أخرى. مثلاً، رفض والد لبنى أن يزوجها ابن عمها غانم من غير مهر لائق بها، مع أنه هو الذي كان قد حرم غانم أموال أبيه. وكان الوالد ينوي سراً أن يزوجها ملكاً غنياً تكرهه. فعرضت على غانم أن تهرب معه، إلا أن الوالد اكتشف ذلك وحال دون هربها. فغادر غانم سعياً وراء مال وفير يقدمه مهراً، في حين أن والد لبنى اتفق مع الملك على تزويجه إياها، على الرغم من أنه كان قد وعد غانم بألا يفعل . ليلة العرس عاد غانم واكتشف غدر عمّه فقتله وقتل الملك وتزوج لبنى.(٣٧) كذلك رفض المهلب أن يزوّج ابنته ظالم بن عبد الوهاب، وحلف أن يقتلها ولا يسلمها حتى بعد أن أمره الخليفة هارون الرشيد بذلك. في نهاية الأمر حارب عبد الوهاب وذات الهمة ورجالهما المهلب، وانتصروا عليه، فاستطاع ظالم أن يتزوج حبيبته.(٣٨) وسلمى بنت الغطريف أجبرها والدها مرتين على أن تتزوج رجلين لا تحبهما.(٣٩) وتبيّن السيرة أن سلطة الوالد هذه لم تكن وقفاً على المسلمين. فملك الروم ميخائيل خطب الأميرة الجميلة مليكة من والدها، إلا أنه رفض أن يزوجه إياها وزوّجها صليبا القبيح المنظر مقابل أموال طائلة دفعها له. ووقع الملك ميخائيل أسيراً في يد كوشانوش الذي كان صليبا قائداً في جيشه. حين وقع بصر مليكة على الملك ميخائيل تمنت أن يكون زوجها. رشت السجان ودخلت على الملك في سجنه، وشكوا حبهما إلى بعضهما البعض وتعانقا، ثم رشت السجان ففتح باب السجن للملك ميخائيل ومن كان معه من العرب. حين خرجوا دارت معركة حامية بينهم وبين صليبا ورجاله قُتل فيها صليبا وتزوجت مليكة الملك ميخائيل.(٤٠) ولكننا نلاحظ أن الحب هو الذي انتصر في نهاية المطاف، وكأن الشعب لا يريد إلا أن ينتصر، وأن يكون للفتاة حرية اختيار الزوج.

وهذا ما نلاحظه في عدد آخر من قصص الحب. مثلاً، تخاصم قشعم بن عبد الوهاب ومذبحون بن البطال بسبب زهرة الجميلة التي أُغرما بها. فاحتكما إلى والدها، ثابت بن جرير، ليقرر بينهما. إلا أن الوالد قال إنه سيسأل ابنته أيهما تفضل. قالت إنها تفضل مذبحون، ولكن ليخرج إليها كل منهما وستتزوج الذي يغلبها في

(٣٧) **السيرة**، ١:١٤٥-١٥١.
(٣٨) **السيرة**، ٣: ٦-١٤.
(٣٩) **السيرة**، ١: ٧٩-٩٣.
(٤٠) **السيرة**، ٤: ٨٣-٨٩.

المبارزة. فخرج إليها قشعم، إلا أن جمالها أفقده لبه وشجاعته، فاستطاعت زهرة أن تطعنه، وتزوجها مذبحون ودخل عليها من ليلتها.[٤١] وحين مات بحرون أحبت زوجته افتونا عبد العزيز العلوي، وكان عبد الوهاب قد وعد عمرو بن عبيد الله السلمي أن يزوجه إياها لأنه أغرم بها. ولكن افتونا هددت بأن تقتل نفسها إن هم غصبوها على أن تتزوج غير عبد العزيز. ووسّطوا الخليفة المعتصم كي يقنع عمرو بن عبيد الله بالاستغناء عن أفتونا، وعقد الخليفة نفسه الزواج بينها وبين عبد العزيز.[٤٢]

وتصف السيرة أحياناً ما يفعله الرجل أثناء المضاجعة، ولكن من غير إشارة الى ما تفعله المرأة. وهذا إما لأن متعة المرأة الجنسية لا تعار أهمية حتى في أيامنا؛ أو بسبب المعتقد السائد إلى يومنا هذا من أن المرأة لا ينبغي أن تتمتع بالمضاجعة إذ خلقت لكي تكون أداة لمتعة الرجل لا غير؛ أو لأن المرأة هي «الحرمة» وعليه لا ينبغي أن يذكر شيء عن تصرفاتها الحميمة . مثلاً، حين حصل البطال أخيراً على نورا «واقعها وفك ختامها وجعل يعضعض خدودها» وظل هكذا يضاجعها يومين كاملين.[٤٣] ولما قبلت زنانير في النهاية أن تقلع عن مثليتها وتتزوج لؤلؤ، دخل عليها لؤلؤ «وخلع ثيابه وزاد نشاطه ولهاً بها وأخذ الساقين وصار بين الفخذين وعمد إلى الباب وأقعد النشاب وحرّر وقرب وقام القلوع وزاد به الولوع وحلّ الممنوع فأصيب الدروع وأخرب الاطلال والربوع ولاحسب رجوع وزاد في العمل ولا أورى تعب ولا ملل.» صحيح أن الراوي يستخدم مختلف الاستعارات، إلا أنها لا تخفي حركات المضاجعة، بل تصوّرها تصويراً حسياً ملموساً. أما زنانير فتكتفي بأن تقول: «والله ما كنت أظن أن فيك هذا كله.»[٤٤]

ب- الحب المخلص لحبيبة واحدة

(ب) (١) في السيرة أربعة أمثلة على إخلاص الحبيب لحبيبة واحدة. أولها حب الصحصاح لابنة عمه ليلى الجميلة الغنية وابنة سيد القوم، وكانت هي أيضاً تحبه خفية. تشبه هذه القصة قصص الحب العذري الأموية، إلى حد. فحين تغزّل الصحصاح بابنة عمه خاف والداها على سمعتها وطلبا منه أن لا يراها أبداً. فبكى

(٤١) **السيرة**، ٥: ٥٩١-٦٠١.
(٤٢) **السيرة**، ٥: ٥٧٢-٥٧٥.
(٤٣) **السيرة**، ٢: ٨٩٨.
(٤٤) **السيرة**، ٣: ٧٧١.

وتحسّر وشكا أمره إلى والدته التي وبّخته بدورها على ذكره ليلى في شعره لأن ذلك يجعلها حديث الناس وينكس بختها فيتمنع خطابها. ولكنه أصرّ على أن من حقه أن يتزوجها مع أنه فقير، لأنها ابنة عمه. ولم يكفّ عن التغزل بها، مؤكداً «أنا من اليوم قتيل هواها وأسير عيناها ولا أسمع فيها لوم لائم وإن نامت فأنا غير نائم وإن صرمت حبلي فإني غير صارم.»(٤٥) ودام على هذه الحال ثلاث سنين، ثم خرج من الحي يائساً هائماً على وجهه في البراري آملاً أن يجد سبيلاً إلى الخلاص من فقره ليعود ويخطب ليلى. وحين حصل على بعض المال وعاد واجتمع سراً بليلى، قضيا معاً ليلة بالشكوى والحنين، ليس إلا. عرف والدها بذلك وهدّد بقتله، فقرر أن يغادر الحيّ ثانية طلباً لمزيد من المال والشهرة حتى يستحق ليلى، ووعدته هي بأن تنتظره حتى يعود. وتسرد السيرة بعد ذلك قصص مغامرات الصحصاح ومعارك بطولته في سبيل الحصول على ليلى، إلى أن منحه الخليفة عبد الملك بن مروان الإمارة على العرب بدلاً من مروان بن الهيثم السلمي. وإذ طال غياب الصحصاح، ظن أهل ليلى أنه مات، فزوجها والدها لحريث بن الحجاج مع انها ظلت تبكي لفقدان الصحصاح. ولكن الصحصاح عاد قبل أن يدخل حريث بليلى وأمره مسلمة بن عبد الملك أن يتخلى عنها للصحصاح. ولكن الصحصاح لم يمسها، ولم يدخل عليها إلا بعد ثلاثة أيام، بعد أن خطبها رسمياً من والدها امام جميع الملوك.(٤٦) وحين أدهشه جمال أمامة بعد ذلك بسنوات اشتهاها ونسي أهله وخطبها إلى والدها وتزوجها وقضى معها ثمانية أيام وليال. ولأن ضميره عذبه بسبب خيانته ليلى كذب عليها حين عاد وادّعى أنه كان عند عرب أصروا على بقائه عندهم. وظل يكذب على ليلى كلما أقام عند إمامة شهراً او أكثر إلى أن افتضح أمره. فبكت ليلى وأغمي عليها. وحين أغرم بعد ذلك بغزالة جنية عابته على خيانته لليلى واختفت.(٤٧) وكأن هذه الحادثة الخرافية إشارة أخرى إلى عذاب ضميره، وتعبير غير مباشر عن استنكار الشعب خيانة الرجل لحبيبة انتظرته سنين.

ومثل آخر على الحب الطاهر الشريف حب الفتى البصري لجارية جعفر البركي. غارت زوجة جعفر من هذه الجارية الجميلة فباعتها. أحبها الفتى الذي اشتراها حباً جماً، ولكنها امتنعت عليه ثلاثة أشهر وهو صابر على ذلك من غير أن يعرف سببه،

(٤٥) **السيرة**، ١: ١٠٣.
(٤٦) **السيرة**، ١: ١١١-٢٦٩.
(٤٧) **السيرة**، ١: ٤٤٦-٤٦١.

إلى أن أخبرته أنها فعلت خوفاً عليه من جعفر إذا عاد ليسترجعها. وحين استرجعها جعفر عنوة وعرف خبرها مع الفتى لم يمسها احتراماً لشرفها وإخلاصها وأعادها إليه.[٤٨] أما الحب الآخر المخلص والشريف فهو حب لؤلؤ لزنانير الرومية التي ظلت تمتنع عليه بسبب مثليتها، وهو يزداد بها حباً. وحين طلب منه سيده البطال أن يسلمه إياها حين خلصها لؤلؤ من الأسر هجم بخنجر على البطال مؤكداً أنه مستعد لكل شيء في سبيل حبه. وأكد أنه إذا مات دون أن يتمكن من نيلها يكون شهيد حبها ويرجو أن تكون زنانير زوجته في الدار الآخرة.[٤٩]

(ب) (٢) حب البطال الفريد

ولكن لعلّ أجمل قصص الحب الشريف والمخلص في السيرة قصة حب أبي محمد البطال للأميرة الرومية نورا والتي احتلت قسماً كبيراً من الجزئين الثاني والثالث من السيرة.[٥٠] فنورا الرائعة الجمال هذه سلبت، فيما سلبت، لبّ بطل السيرة الأمير عبد الوهاب وأمير السلميين عمرو بن عبيد الله والخليفة هارون الرشيد والبطال، الذي كان أفقرهم. وحين عُرضت للبيع عرض البطال أن يشتريها بثلاثمئة ألف دينار نوى أن يسرقها من منافسيه الثلاثة. وحين أكد عبد الوهاب أن نورا لن تكون لغيره، غضب البطال واستنجد من يسانده في محاربة عبد الوهاب، أميره وصديق العمر، ودارت بين الفريقين معارك ضارية ودموية قتل فيها خلق كثير، فيما هرّب عبد الوهاب نورا إلى زوجته علوى. وحين أسر البطال ظل يهدس بنورا. وحين تخلص من الأسر عادت المعارك بينه وبين عبد الوهاب والخليفة هارون الرشيد من أجل نورا، وأسر البطال الرشيد وعبد الوهاب ووالدته ذات الهمة وهددهم بأن يسلمهم للروم إن لم يعطوه نورا. وبعد مؤامرات ومغامرات ومعارك كثيرة خلص البطال الرشيد ثم عبد الوهاب من الأسر عند الروم، وطلب من الخليفة ثم من عبد الوهاب مقابل ذلك أن يعطياه نورا. ولكي تكافئ ذات الهمة البطال على خدماته لابنها ولبني كلاب وعدته في النهاية بأن تمنحه نورا «ولو قطعت رؤوس وملئت حبوس.»[٥١] وحين رفض عبد الوهاب تسليمها وسحب سيفه على البطال انبرت له أمه ذات الهمة تبارزه، غلبته، وحلفته أن يسلم البطال نورا. إلا أن نورا كانت قد

(٤٨) **السيرة**، ٢: ١٤٥–١٥٢.
(٤٩) **السيرة**، ٣: ٣٦٢ و ٦٣٧.
(٥٠) **السيرة**، ٢: ٤٤٨–٨٩٨، و ٣: ١–١٨١.
(٥١) **السيرة**، ٢: ٧٨٤.

اختفت في هذه الاثناء لأنها لم ترد ان تتزوج البطال ولا غيره، وعادت إلى قومها الروم. فذهب البطال وذات الهمة لمحاربة الروم، وإذ أسرا، أخذت نورا تضرب البطال بسوط وهو لا يشعر بالألم من فرط محبته لها ويرى ضربها له أحلى الأشياء على قلبه. إلا أن البطال وذات الهمة تمكنا من الإفلات، وعادت المعارك بين المسلمين والروم، تدور الدائرة حيناً على أولئك وحيناً على هؤلاء إلى أن تمكن المسلمون من القبض على نورا، وكُتب كتاب البطال عليها. استمرّت نورا تعاند البطال وتقسو عليه حتى رفستها ذات الهمة وقيّدتها، فواقعها البطال وظل يضاجعها يومين كاملين. وخلال الأيام التالية ظل يحادثها ويغازلها حتى تحوّل بغضها حباً، وانقطع عن خوض المعارك مدة طويلة ليبقى إلى جانبها. وحين خُطف البطال إلى شمالي افريقيا ظلّ بعد سنة ونصف يحنّ إلى نورا. وإذ طال غيابه وظنه القوم قد مات رفضت نورا من ناحيتها كل من تقدم لها خاطباً، مؤكدة أنها لا تريد بعد البطال زوجاً. وحين لقيته القناصة بعد سنين لم يسألها إلا عن نورا.(٥٢) حتى آخر السيرة لم يحب البطال ولم يتزوج غيرها، وعلى نقيض عبد الوهاب وأبطال السيرة الآخرين ظلّ البطال مخلصاً لحبيبته الوحيدة.

(ب) (٣) الفرق بين حب البطال وحب الآخرين

في هذا وفي انقطاعه عن الحرب مدة طويلة ليبقى قرب نورا اختلف البطال عن بقية أبطال السيرة. فعلى الرغم من حب الظالم القوي لصباح التي نشبت بسببها المعارك لكي يستولي عليها تزوج أم الخير بمجرد أن وقعت عينه على جمالها، وأقام معها سعيداً لا يتذكر زوجته السابقة صباح، ولا يحن إليها. وحين تذكّر الأوطان حنّ إلى والديه وجدّته ذات الهمة ولم يذكر هذه الزوجة.(٥٣) أما طارق بن الأشعث فقد غامر وحارب للحصول على ابنة عمه فتون، وحين استطاع في النهاية أن يتزوجها، ودخل عليها من ليلته «وزال عنه الهم والجنون وطاب قلبه وانشرح صدره» تركها في اليوم التالي ليرافق عبد الوهاب في الجهاد ضد الروم.(٥٤) وهذا ما فعله أيضاً بحرون الذي أحب ملكة الروم أفتونا، وبعد أن انتصر العرب في معاركهم ضد الروم اعتنقت أفتونا الإسلام وتزوجها بحرون ، إلا أنه هو أيضاً عاد إلى محاربة الروم بعد

(٥٢) **السيرة**، ٣: ١٨١.
(٥٣) **السيرة**، ٣: ١٠٣-١٠٤.
(٥٤) **السيرة**، ٢: ٥-١٢.

زواجه مباشرة.[٥٥] وهذا ما فعله سيف الحنيفية كذلك. حين رأى الأميرة الرومية زنانير الجميلة وأطربه عزفها على مختلف الآلات الموسيقية وقع في غرامها كما فتنها جماله فاعتنقت الإسلام. إلا أن والدها الملك أراد قتله لأنه أخرج ابنته عن دينها فسار إليه بجيش جرار. وهبّ عبد الوهاب وذات الهمة برجالهما لنصرة سيف الحنيفية تساعدهم الأميرة زنانير. وبعد أن انتصر المسملون على الروم واحتلوا القصر تزوج سيف الحنيفية الأميرة زنانير، وبات معها ليلتين، ولكن في صباح اليوم الثالث رافق عبد الوهاب وجيشه لمساعدة المعتصم على فتح عمورية.[٥٦] من هذه الأمثلة وغيرها نرى أن حب الرجل للمرأة، مهما قوي وتطلب من كفاح ومخاطرة وتضحية يبقى في رأي الشعب أقلّ أهمية من الكفاح والمخاطرة والتضحية في سبيل الجهاد من أجل الإسلام. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبيّن هذه الأمثلة إعجاب الشعب بالبطولة. فمعارك البطولة النادرة تشكل الجزء الأكبر من السيرة ومن كل قصص الحب فيها، وهذا الحب لا ينتهي بالزواج إلا بعد معارك بطولية عنيفة. إلا أن هذا لا يعني أن السيرة، ومن خلالها الشعب، لا يبينان ما للحب من تأثير بعيد في الإنسان.

٤ – تأثير الحب

أقوى هذه المؤثرات، كما بيّنا، هو استعداد الحبيب للمغامرة والتضحية وحتى للحرب وللمخاطرة بالحياة في سبيل الحصول على الحبيبة. وهذا تجلى فيما أوردناه من معارك الصحصاح للحصول على مهر لائق بليلى، أو من الحروب التي خاضتها ذات الهمة وابنها للحصول على ميمونة، أو حرب ظالم بن عبد الوهاب لينال مليكة، أو المغامرات الكثيرة والمعارك الطويلة التي اشترك فيها البطال من أجل الحصول على حبيبته نورا. وكثيراً ما اكتفى المتنافسان في حب امرأة واحدة بأن يتبارزا فتكون الحبيبة لمن غلب، كما حصل في المبارزة بين صدقة وصالح من أجل ابنة حاميد التي كانت تحب صالح،[٥٧] أو المبارزة بين طارق والخطاف من أجل فتون التي كانت تحب طارق، وما لبث أن قتل الخطاف.[٥٨] وبانتصار صالح وطارق نحس أن الشعب أراد أن ينتصر الحب.

(٥٥) **السيرة**، ٥: ٤٢٥.
(٥٦) **السيرة**، ٦: ٣٦٢–٣٩٣.
(٥٧) **السيرة**، ٧: ٨٦٩–٨٧٧.
(٥٨) **السيرة**، ٢: ٥–١٢.

كذلك ترينا السيرة أن حياة زوجية طويلة قد تجعل المرأة تفضل الموت على فقد زوجها الذي تحب. كان لهياج الكردي وزوجته بنات كبار. فحين حاربهم الروم وعرّض هياج نفسه للموت قالت له زوجته وبناته: «إننا لا نطلب من بعدك الحياة وأنت في عداد الأموات.» فخضن الحرب إلى جانب هياج.(٥٩)

إلا أن الحب قد يسبب معارك وعداء بين صديقين حميمين، او بين الأب وابنه. فعلى الرغم من صداقة العمر بين عبد الوهاب وأبي محمد البطال، وعلى الرغم من تخليص البطال لعبد الوهاب من أيدي الأعداء مراراً، إلا أن حبه لنورا أدى إلى أن يتمنى البطال أن يقتل الروم عبد الوهاب ليستطيع أن يأخذ منه نورا فلا يعود ينازعه فيها.(٦٠) كذلك تخاصم عبد الوهاب وابنه ظالم من أجل جارية جميلة هي دوصة. فأراد عبد الوهاب أن يطرحها في المزاد فتكون لمن يدفع ثمنها، وهو يعرف أنه أغنى من ابنه ظالم. إلا أن ظالم حلف أن لا يدخل بينه وبينها أحد، وأخذ يبكي وجداً. فخففت عنه جدته ذات الهمة ووعدته بأن تكون الجارية له، فاطمأن لأنه كان يعرف سلطة ذات الهمة على ولدها عبد الوهاب.(٦١)

ولكن السيرة تبيّن أن الحب قد يؤدي إلى مآسٍ أكبر. والمثل على ذلك حب ميمونة لملك الروم المسيحي أرمانوس. كانت ميمونة زوجة عبد الوهاب، وحين أسرها الروم ورأت ملكهم القوي والجميل أرمانوس «غاب عقلها وذهب رشدها ونسيت ولدها.»(٦٢) وحين عرض عليها أرمانوس الزواج بعد أن تتنصر فتُعتبر طالقة من عبد الوهاب، رضيت. سمع عبد الوهاب بذلك فسار إليهما بجيشه وأمه ذات الهمة، ودار بين العرب والروم عدد من المعارك. وفي إحداها قصدت ميمونة أن تقتل زوجها السابق عبد الوهاب، وحين علمت أن ابنها بحرون قد اعتنق الإسلام وأنه يحارب مع عبد الوهاب نوت أن تقتله هو أيضاً. وإذ تعجب الملك أرمانوس من ذلك قالت له: «قتله في هواك يكون ويهون.»(٦٣) ونازلت بحرون، غلبته وقتلته. وإذ تبيّن السيرة ان حب الإنسان قد يكون أقوى من حب الولد نحس أنها تودّ أن تؤكد أن سيطرة الحب على الإنسان تجعله يفقد عقله وحتى عواطفه الطبيعية، كحب الأم لولدها.

فلا عجب بعد ذلك أن تبيّن السيرة أن الحب يفقد المرء كل إحساس آخر

(٥٩) **السيرة**، ١: ٨٨٠–٨٨١.
(٦٠) **السيرة**، ٢: ٥٨٦.
(٦١) **السيرة**، ٣: ٦٣٢.
(٦٢) **السيرة**، ٥: ٢٥٥.
(٦٣) **السيرة**، ٥: ٥٠٩.

بالمسؤولية. وقعت الأميرة نورا الرومية أسيرة في أيدي العرب، وانشغل عبد الوهاب بحبها، مع أنه لم ينل منها غير النظر، ولم يجرؤ على مخالفتها لشدة حبه لها، وكان يخضع لها. أما هي فلا تزداد إلا قساوة وجفاء. فوبّخته أمه ذات الهمة لأن حبه لها يشغله عن مصالح المسلمين.(٦٤) كذلك سلبت الاميرة نور النار لبّ عبد الوهاب حين وقع أسيراً في يد والدها. وكان قد أعجب بجمالها بقدر ما أعجب بشجاعتها وفروسيتها. وحين سنحت لعبد الوهاب فرصة أن يهرب من الأسر مع أصدقائه، رفض لأنه لم يرد أن يفارق نور النار. فوبخه البطال الذي كان معه قائلاً إن الوقت الآن ليس وقت عشق، وان عليهم أن يهربوا ليتابعوا حروبهم. فحلف عبد الوهاب أنه لن يترك إلا معها. وحين سمعتهم نور النار يتلون آيات القرآن دخل الإيمان قلبها، وفكت قيود الأسرى وهربوا جميعاً.(٦٥)

والحب لا يفقد المرء عواطف الصداقة والأبوة والأمومة فحسب، ولا يفقده عقله وكل شعور بالمسؤولية فقط، وإنما يفقده أيضاً قوته الجسدية. حتى بطل قوي مثل ظالم فقد قوته ومرض نتيجة الحب، كما حصل له حين وقع في غرام مليكة زوجة ملك الروم ميخائيل. فحلفت جدته ذات الهمة أن لا تترك حفيدها يموت بسبب حبه، فسيّرت جيشها إلى الروم، ودارت بين العرب والروم معارك دموية ضارية، وكانت بين ملوك الروم ملكة قوية وجميلة هي الملكة كرنة، فحين رآها الملك ميخائيل أسرت لبه ونسي مليكة.(٦٦)

وكثيراً ما تظهر قصص الحب في السيرة الصراع بين الحب والدين في نفوس أبطالها. أحياناً يكون الحب أقوى من الإيمان بالدين، كما نرى في إصرار حريث على أن يتزوج ليلى على الرغم من أنه لم يتأكد من أن زوجها الصحصاح ميت. وعبثاً حاول ابن خالته غانم أن يقنعه بإرجاع ليلى إلى والدها حتى يتأكدوا من موت الصحصاح فتكون له ليلى بعد ذلك حلالاً.(٦٧) فحب حريث لليلى أفقده التمسك بالشريعة التي تحرّم على الرجل أن يتزوج امرأة متزوجة. (ولكن الشريعة انتصرت إذ عاد الصحصاح قبل أن يدخل حريث بليلى). وعلى نقيضه لم يرضَ مذبحون أن يخالف أوامر الشريعة إذ رفض أن ينام مع مريم المسيحية حين عرضت عليه ذلك

(٦٤) **السيرة**، ٢: ٤٨٢.
(٦٥) **السيرة**، ٧: ٣٥-٥٢.
(٦٦) **السيرة**، ٤: ١٦٠-١٨٠، ٢٩٣-٢٤٩.
(٦٧) **السيرة**، ١: ٢١٤-٢١٩.

لأن الزنا ليس حلالاً. وظلت مريم الجميلة تطلب منه مضاجعتها وهو يرفض باسم الدين إلى أن عرضت عليه أن تتزوجه بعد أن تعتنق الإسلام.(٦٨)

ذلك أن الحب قد دفع بعض ابطال السيرة إلى تغيير دينهم. أحياناً يعتنق المسلم المسيحية إكراماً لعيني حبيبة مسيحية، كما فعل زحاف الذي تنصّر إذ وقع في غرام ابنة ملك الروم. وحين نشبت المعارك بين المسلمين والروم، رأى جحاف أخاه زحاف ووبخه على تركه إسلامه، فأجابه زحاف: «يا أخي، إن الهوى غلب على التقوى وأخرجني عن دين الإسلام وما لي إليه سبيل ولا يطيب أن أترك هذه العروس التي ملكت قلبي وأنا أريد أن أكون معها أينما كانت.» فغضب عليه أخوه وسحب سيفه وقتله.(٦٩) كذلك تنازلت الملكة ميمونة عن إسلامها حين أغرمت بملك الروم أرمانوس، واعتنقت المسيحية لكي يبطل زواجها من عبد الوهاب.(٧٠) إلا أن معظم الذين غيروا دينهم كانوا مسيحيين اعتنقوا الإسلام. والأمثلة على ذلك كثيرة. فالمسيحية الرومية أشمونيس أحبت ابن عمها الذي كان هو أيضاً يحبها. وبما أن ديانة الروم الارثوذكس تمنع الزواج بين أبناء العم قرر الحبيبان اعتناق الإسلام وتزوجا.(٧١) كذلك أيضاً اعتنقت الجارية نهار والأميرة زنانير الإسلام حباً بلؤلؤ،(٧٢) وأسلمت ابنة ملك الروم ست البيع لأن الأمير ظالم تيّمها.(٧٣)

وكثيراً ما تؤكد السيرة شدة تمسك المسلمين بدينهم. مثلاً، رفض لؤلؤ أن يعتنق المسيحية مع أن جمال زنانير فتنه، فأعجبت بإيمانه وأحبته.(٧٤) وعلى الرغم من غضب البطال على الخليفة هارون الرشيد بسبب خلافهما على نورا هبّ البطال لنصرة الخليفة لأنه اعتبر أسر الروم للخليفة مهانة للمسلمين، فتنكّر ودلّ المسلمين على مكان الأسرى ليخلّصوا الخليفة.(٧٥) وبطلة السيرة الكبرى، ذات الهمة، رفضت الحب والزواج لأن رسول الله ظهر لها في حلمها وهي فتاة وقال لها «إنها سيف من سيوف الإسلام.»(٧٦) فجنّدت نفسها وحياتها للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

(٦٨) **السيرة**، ٦: ١١١–١١٥.
(٦٩) **السيرة**، ٦: ٦٤٥.
(٧٠) **السيرة**، ٥: ٢٥٥–٢٥٦.
(٧١) **السيرة**، ١: ٣٩٨–٤٠١.
(٧٢) **السيرة**، ٣: ٣٨٣ و ٧٥١.
(٧٣) **السيرة**، ٧: ٥٤٤–٥٥٤.
(٧٤) **السيرة**، ٣: ٣٩٧–٣٩٨.
(٧٥) **السيرة**، ٢: ٥٦٠–٥٦٧.
(٧٦) **السيرة**، ٥: ١٢٨.

دلالة قصص الحب

ككل القصص الشعبي تصوّر «سيرة ذات الهمة»، تصويراً مباشراً أو غير مباشر، واقعاً يعيشه الشعب، عقليته وتقاليده وعاداته ومعتقداته، معاناته وأحلامه وأمانيه.

١ – الإيمان العميق

أول ما يلفت نظر قارئ السيرة هو إيمان الشعب الشديد بدينه. بما أن السيرة دوّنت بشكلها الأخير بعيد الحروب الصليبية كان من الطبيعي أن نجد فيها نقمة على المسيحيين. فهي لا تذكرهم إلا وهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، سكارى، وكأن ذلك كل ما يأكلون ويشربون. بل قد تنسب إليهم قضايا بعيدة كل البعد عن المسيحية، كأكل لحوم البشر. كذلك تبيّن السيرة أن الشخصيتين الرئيسيتين الثانيتين، أي عقبة وشومدرس المسيحيين كانا محتالين، كذابين، لئيمين، ليس فيهما أية حسنة. وفي حروب المسلمين مع الروم لا بدّ أن ينتصر المسلمون في نهاية المطاف، حتى لو هزمهم الروم مراراً. وقد أشرنا إلى اعتناق العديد من الروم المسيحيين الإسلام لمجرد سماعهم تلاوة آيات القرآن، كما أشرنا الى نصرة المسلم غيره من المسلمين، حتى لو كانوا أعداءه، وإلى أن بطلة السيرة الأولى، ذات الهمة، أعرضت عن الحب والزواج لكي تجاهد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، كما أن الرجل يغادر زوجته بعد ليلة الدخلة مباشرة لكي يتابع جهاده في سبيل الدين.

٢ – الإعجاب بالبطولة

إلى جانب إيمان الشعب يتجلى لنا إعجابه الشديد بالبطولة. فالبطولة في السيرة ليست وقفاً على الرجال، وإنما معظم النساء فيها بطلات قويات أيضاً. وقد نجد في تمجيد البطولة إحساس الشعب بأن الحياة لا يمكن أن تتقدم إلا بفضل عناصر بطولية تغلبت على الضعف، أو الشر، أو النقص. فالسيرة تبيّن أن بطولة المسلمين مكنتهم من التغلب على الروم حين وقعوا أسرى في أيديهم، (كما أن التاريخ يبين أن بطولتهم جعلتهم ينتصرون على الصليبيين الذين اجتاحوا بلادهم). وبفضل بطولة عبد الوهاب وذات الهمة تمكنا من الانتصار على شرّ عقبة اللئيم المحتال وأن يصلبوه في النهاية. أما النقص في الأخلاق، فتداويه البطولة أيضاً. مثلاً، حين أراد عبد الوهاب أن ينكث بوعده أن تكون نورا لمن انتصر في المبارزة، تصدت له والدته

وغلبته وأجبرته على الوفاء بالوعد.(٧٧) وحين رفضت غمرة أن تتزوّج ابن عمّها عامر الذي تبجّح بفروسية وبطولة لم يتحلَّ بهما، تبيّن السيرة انتقاد الشعب العنجهيّة الفارغة، وإيمانه بأنها لا بدّ أن تُعاقب وأن حبل الكذب قصير.

٣ – العادات والتقاليد والمعتقدات

كذلك تصور قصص الحب في السيرة العديد من عادات الشعب وتقاليده ومعتقداته. فكثيراً ما شعر أحد شخصيات السيرة أنه أحق بالحبيبة من غيره لأنها ابنة عمه. من هذا القبيل إصرار الصحصاح على الزواج من ابنة عمه ليلى، أو طارق من ابنة عمه فتون، أو صالح من ابنة عمه.(٧٨) وقد لعب المهر دوراً كبيراً في سماح الوالد بزواج ابنته، اعتقاداً منهم أن قيمة المهر تدل على قيمة الفتاة وأهلها. لذلك اضطرّ الصحصاح، مثلاً، إلى أن يغامر ويحارب للحصول على مهر لائق بليلى، كما بيّنا. ولعلّ من أكثر القصص دلالة على هذه الذهنية قصة حب طارق لابنة عمه فتون. كان طارق فقيراً، فرفض عمه أن يزوّجه فتون إلا إذا خدمتها طرفة ابنة الغطريف، فيستطيع بذلك أن يفتخر على قومه إذ كان الغطريف سيد قومه. فخرج طارق، وكمن لطرفة وصديقاتها، ثم خطفها. وبعد ذلك أيضاً رفض والد فتون أن يمنحه إياها إلا مقابل مهر «ثلاثين ألف دينار وأربعة آلاف ثوب من الديباج.» فاضطرّ طارق الى معارك ومغامرات أخرى حتى حصل على ما يليق بالفتاة في رأي والدها.(٧٩)

ومن تقاليدهم الأخرى التي نستجليها من قصص الحب خوفهم الشديد على سمعة الفتاة. لذلك يرفض الوالد أن يزوج ابنته من تغزل بها، كما رفض والد ليلى أن يزوّجها الصحصاح، أو والد صباح بنت المهلب أن يزوجها ظالم ابن القناصة وعبد الوهاب.(٨٠) ونتج عن ذلك تمسكهم بأن تكون الفتاة عذراء قبل أن تتزوج. حين عاد الصحصاح من مغامراته وحروبه للحصول على مهر لائق بليلى ووجد أن والدها كان قد زوّجها لحريث، ارتاح حين اكتشف أن حريثاً لم يكن قد دخل بعد بليلى. فلولا تمسك الصحصاح بعذرية الفتاة، لاستطاع أن يطالب بتطليقها من زوجها إذ كان والدها قد وعده بها قبل حريث.(٨١) وبعد أن اغتصب الحارث ذات الهمة

(٧٧) **السيرة**، ٢: ٧٩٥–٧٩٦.
(٧٨) **السيرة**، ١: ٩٩، ٩٤٣، و ٧: ٨٦٩.
(٧٩) **السيرة**، ١: ٩٤٣–٩٥١ و ٢: ٥–١٢.
(٨٠) **السيرة**، ١: ٩٩–١٠٣ و ٣: ٥–٦.
(٨١) **السيرة**، ١: ٢٢٠–٢٣٨.

ووضعت ولداً أسود، شهّر بها واتهمها بأنها كانت تحب وتضاجع عبداً أسود ولذلك رفضت أن تتزوجه. وعانت ذات الهمة من هذه التهمة إلى أن تمكنت من إثبات براءتها وعفتها.[٨٢] ولذلك خافت بطوانة حين حملت من فرسيس الذي لم يكن زوجها فاستعانت بالسحر والتدجيل لتبرر هذا الحمل.[٨٣] وحين نافس هارون الرشيد عبد الوهاب في حب الجارية ميرونة دخل عبد الوهاب عليها وافتض بكارتها ليتخلص من ردّها إلى الرشيد الذي لن يرضى بجارية افتُضت بكارتها.[٨٤]

وتتخلل قصص الحب صور عن إكرام الضيف، وجلوة العروس، والملابس الفاخرة التي ترتديها، وتمسك العرب بالشرف والوفاء بالوعد. مثلاً، حين أغار الحارث بن عمرو الكلابي على أحد أحياء العرب ونهب أموالهم ونساءهم، كان بينهن الرباب الجميلة، فخطفها لنفسه. ولما بكى والدها لأن الحارث أخذها غصباً أطلقها الحارث مع أهل قبيلتها، وساق إلى والدها ألف ناقة وألف دينار مهراً لها وتزوجها شرعاً.[٨٥] وقد أشرنا إلى هجوم ذات الهمة على ابنها تبارزه لأنه نكث بوعده للبطال.

ومن المعتقدات الشائعة في الشعب إيمانه بالسحر والجن. رأينا ذلك في قصة الخاتم السحري الذي أعطاه فرسيس لحبيبته كي توهم به الناس بأن الحواري حبّلها بعموده تقديراً لقداستها. والصحصاح أحب، في من أحب، غزالة جنية انسته ليلى وأمامة، فذهب إلى والدها عقهق وخطبها وكتب كتابه عليها.[٨٦] كذلك آمن الشعب بأن الحيلة والذكاء كثيراً ما ينتصران حيث تخفق القوة. فالبطال كان ينتصر دائماً بذكائه وحيله فيخلص المسلمين من الأسر، وفيهم أبطال مثل ذات الهمة وعبد الوهاب اللذين لم تنفعهما قوتهما وفروسيتهما كما نفعهم ذكاء البطال.[٨٧]

٤ – قيمة المرأة عند الشعب

إلا أن ما يلفت نظرنا في هذه السيرة هو موقف الشعب من المرأة وجنسانيتها (sexuality) . أشرنا سابقاً إلى أن العديد من النساء فيها بطلات لسن أقل من الأبطال الرجال قوة وشجاعة. بل إن بطلة السيرة الرئيسية، ذات الهمة، أقوى من

(٨٢) **السيرة**، ١: ٥٩٤–٦١٥.
(٨٣) **السيرة**، ٤: ٥٣–٥٤.
(٨٤) **السيرة**، ١: ٧٧٤–٧٧٦.
(٨٥) **السيرة**، ١: ٧.
(٨٦) **السيرة**، ١: ٤٧٣–٤٨٠.
(٨٧) **السيرة**، ١: ٨٠٣–٨٠٤، و ٢: ٥٦٧–٥٨٣، ٨٠٩–٨٥٩، و ٣: ١٣–١٤، مثلاً.

ابنها وأكثر حكمة، انه يستشيرها، ويمتثل لرأيها، وإن لم يفعل تبارزه، كما رأينا حين أراد أن ينكث بعهده للبطال. والعديد من نساء السيرة مستقلات في آرائهن وتصرفاتهن، يُترك لهن أمر اختيار الزوج الذي يردن. مثلاً، رأينا كيف أرادت أفتونا، أرملة بحرون، أن تتزوج عبد العزيز العلوي مع أن عبد الوهاب كان قد وعد بها عمرو بن عبيد الله السلمي الذي أغرم بها. لكن أفتونا هددت بأن تقتل نفسها إن هم غصبوها على الزواج من غير عبد العزيز، فاضطرّ عبد الوهاب إلى النزول عند رغبتها. كذلك عجز الأهل وشيوخ القبيلة عن إقناع غمرة بالعدول عن رفضها الزواج من ابن عمها عامر، وأكد أبوها أن القرار هو قرارها.(٨٨) وحين يناقض خيار الوالد ما تريد الفتاة رأينا أن حبها ينتصر في النهاية على رغبة الوالد، وكأن السيرة توحي بان إرادة الفتاة هي التي ينبغي أن تسود.

وفي إحدى قصص الحب إشارة تلفت النظر إلى الغبن اللاحق بالفتاة المسلمة فيما يتعلق بالإرث. كان عقبة اللئيم قد أسر الأمير عبد الوهاب عند السودان بعد معركة جُرح فيها. وحين وقع نظر الأميرة ميمومة على عبد الوهاب أحبته ووعدته بأن تكرمه غاية الإكرام وأن تقاتل من أجله والدها صديق عقبة. ثم خرجت للصيد مع أخيها ميمون. وحين أرادا اقتسام ما اصطادا أراد ميمون أن يأخذ الضعف لأنها أنثى. فرفضت وأصرت على أن تأخذ مثل ما يأخذ هو. فتبارزا وغلبته وعرضت عليه ثانية أن يأخذ نصف ما اصطادا، وحين رفض مجدداً «جرّدت حسامها وضربته وأطارت رأسه عن جثّته.»(٨٩) قصة واحدة، لكنها كافية لتظهر إحساس الشعب، حتى في العصور الوسطى، بأن المرأة المسلمة مغبونة. ولولا هذا الإحساس لما جعلتها السيرة تنتصر على أخيها لتأخذ حقها في الإرث. رواة السيرة رجال، وليسوا نساء، فكونهم قد أوردوا هذه القصة بعيد الدلالة على موقف الشعب من بعض الشرائع المتعلقة بحقوق المرأة.

أما جاذبية المرأة وجنسانيتها فلا ترى السيرة أن لها أية علاقة بسنها. فذات الهمة، مثلاً كانت جدة لأبطال يحاربون إلى جانبها وجانب والدهم، وعلى الرغم من ذلك كانت تزداد جمالاً مع العمر، وأغرم بها ملك الروم وطلب أن تتزوجه، كما أسلفنا. وميمونة أنجبت ولداً أصبح هو أيضاً بطلاً يشترك في المعارك. وبعد ذلك بسنين، وبعد أن كانت قد تزوجت أرمانوس إذ لم تكن قد فقدت هي أيضاً شيئاً من

(٨٨) **السيرة**، ٥: ٥٧٢–٥٧٥ و ٤: ٧٢٨–٧٣٢.
(٨٩) **السيرة**، ٤: ٤١٥–٤١٦.

جاذبيتها الجنسية، ولدت ولداً آخر درّبته على الفروسية حتى أصبح بدوره فارساً يحارب إلى جانبها.[٩٠] فنساء السيرة لا يهرمن ولا يشخن، ولا تحرمهن الطبيعة نضارتهن وجاذبيتهن وإمكانية الإنجاب؛ أنهن دائمات الشباب والجمال والقوة والخصوبة. ألأن هذا ما يتمناه الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، فتحقق السيرة هذه الأماني؟

٥ – انتقاد الواقع، والأماني المكبوتة

ولكن السيرة تحقق أماني أخرى أكثر التصاقاً بالواقع المأساوي المعيش. فالشعوب تعاني الفقر والحرمان، لا سيما أيام الحروب. فنجد صورة هذه المعاناة في اهتمام الرواة اهتماماً شديداً بوصف الحلى والذهب والملابس الفاخرة في الأعراس، ولا سيما المآكل وكثرتها في الولائم،[٩١] فيعوّض الخيال ما حُرم منه الواقع.

وأماني المسلمين في حروبهم الطويلة مع الصليبيين تحققت في انتصاراتهم النهائية عليهم، ولكن السيرة تزيد على ذلك اعتناق عدد من النصارى الإسلام، أما بسبب الحب، كما أسلفنا، أو تأثراً بآيات القرآن الكريم، أو حباً بالإسلام.[٩٢]

وواقع مأساوي آخر عانى منه الشعب وصورته قصص الحب في السيرة بوضوح هو ظلم الخليفة ونقمة الشعب على سلطته المطلقة وعلى إهماله شؤون الرعية في الداخل وفي الخارج على السواء. فهشام بن عبد الملك هام بقتالة الشجعان التي كانت زوجة جندبة. حاول هشام أن يستميلها ولكنها رفضت غاضبة. وحين غادر جندبة وزوجته دمشق لحقهما هشام في جيش كبير ليأخذ قتالة الشجعان عنوة. ودارت معركة بينهم وبين جندبة، وإذ كان جندبة مشغولاً بالقتال خطف هشام الزوجة وحملها إلى دمشق. وحين حاول هشام أن يراود قتالة الشجعان عن نفسها «وهي تمانعه وتأبى ذلك، وكلما تقرب إليها نفرت منه وكلما تبسم في وجهها عبست وقطبت وأخذت تسبه وتشتمه وتنهره ولا تدنو منه» فاغتاظ

(٩٠) **السيرة**، ٦: ٢٠٩.

(٩١) **السيرة**، ١: ٢٩٩، ٤٤٩ و ٣: ٣٥٧، ٤١١، ٧٦٨–٧٧٠ و ٤: ٧٢٨ و ٦: ٣٦٢–٣٧٥ و ٧: ١٠٠٤–١٠١٠، مثلاً.

(٩٢) **السيرة**، ١: ٣٢٦–٣٤٢، ٣٩٨–٤٠١ و ٣: ١٣–١٤، ٤١١، ٧٥١ و ٥: ٤٢٥، ٥١١–٥١٢ و ٦: ٥٥٣، ٦٦٢–٦٨٥ و ٧: ٣٥–٤٥، مثلاً.

منها وخاف أن ينحطّ قدره بين قومه، فقتلها.[٩٣] واضح من هذه القصة أن الشعب نقم على ظلم الخليفة واستبداده واستخدامه سلطته ضارباً عرض الحائط بالأخلاق والعرف وبالشريعة نفسها لكي يشبع أهواءه.

وينتقد الشعب الخلفاء العباسيين الذين انصرفوا إلى أهوائهم، إلى اللهو الفسق، بدلاً من الاهتمام بشؤون الرعية. فالمهدي أخذ يبحث عن جارية لا مثيل لها على الرغم مما في قصره من مئات الجواري. وحين اهتدى أحد رسله إلى غادرة المنقطعة النظير وحملها إلى بغداد انصرف إليها الخليفة يقضي معها الأيام والليالي بالشرب والأكل والاستماع إلى غنائها، كأن لا شغل له ولا همّ ولا مسؤولية حكم أو إدارة. وحين حلم أن أخاه الرشيد أخذها منه، أرسل خادماً ليقتل الرشيد، إلا أن أمه الخيزران حالت دون ذلك وأقنعت المهدي بأن المنامات لا تعني الحقيقة.[٩٤] فلولا تدخل الخيزران لحدثت فتنة في البلد سببها سخف الخليفة وحياته اللاهية وغلوه في الفسق والفجور، وانعدام شعوره بالمسؤولية.

ولم يكن الرشيد بأفضل من المهدي. فحين حارب المسلمون الروم وكانت الأميرة نورا بين الغنائم أغرم بها كل من عبد الوهاب والبطال والخليفة. ومع أن الخليفة وعد البطال بأن تكون نورا له نوى أن يحتفظ بها لنفسه. وحين طالب البطال بنورا غضب الرشيد وسار بجيوشه إلى آمد هاجماً على البطال. وفي الوقت نفسه كان الروم قد ساروا لمحاربة المسلمين، فدارت بين الفريقين معارك ضارية وأسر الروم الخليفة.[٩٥] إن هذه القصة لا تبيّن نقمة الشعب على كذب الخليفة ونكثه بالوعد فحسب، وإنما على ما هو أخطر من ذلك بكثير، على سيره إلى الحرب ووقوعه في أيدي العدومن أجل جارية، حاطاً بذلك من منزلة الحكم ومخاطراً بسلامة الدولة والبلد والناس.

أما ظلم الخليفة واستبداده فينتقدهما عبد الوهاب بصراحة. حين أبدى هارون الرشيد رغبته بشراء نورا مع أن عبد الوهاب رغب بها أيضاً، وبّخ عمرو بن عبيد الله عبد الوهاب قائلاً إنه لا يحق له أخذ ما رغب به الخليفة. فأجابه عبد الوهاب: «يا عمرو، ما للخليفة معنا في هذه السفرة لا قليل ولا كثير ولا حبة واحدة، وهذه الجارية ما يستحقها إلا أنا من دون الناس. أين كان الإمام ونحن نضرب بالكفار

(٩٣) **السيرة**، ١: ٤٧-٤٩.
(٩٤) **السيرة**، ١: ٦٩٢-٦٩٨.
(٩٥) **السيرة**، ٢: ٥٢٨-٥٦٧.

بالصارم البتار؟!» وإذ كان الخليفة يستولي على خمس الغنيمة التي يغنمها الجيش، يضيف عبد الوهاب: «ان المجاهدين أولى بالخمس من الرشيد» وفرّق على الناس الخمس الذي كان قد تركه للرشيد.(٩٦) هذا الكلام يعكس بوضوح نقمة الشعب على حاكم ينصرف إلى اللهو بدلاً من الدفاع عن شعبه ضد العدو. ثم يرسل الناس إلى الحرب والموت، ويستولي على جزء من غنيمة لا يكون قد بذل لنيلها أي جهد أو تضحية أو مخاطرة. هذا كله يرينا انتقاد الشعب للحكم المطلق، وأماني الشعب المكبوتة، رغبته بالعدالة والإنصاف، وبحاكم يدافع عن شعبه ويحسن رعاية شؤونه، بدلاً من أن ينصرف إلى أهوائه ولهوه وفسقه.

ومن غير أن تصرح قصص حب أخرى بمثل هذه النقمة على ولدَي الرشيد الأمين والمأمون، نستنتجها استنتاجاً. كان الأمين يهوى غلاماً له، إلا أن هذا الغلام كان يهوى جارية من جواري الأمين. فعندما سمع الأمين ذلك قتل الجارية غيرة منها ليحتفظ بالغلام لنفسه.(٩٧) إن هذه القصة لا تصوّر ظلم الخليفة واستبداده فحسب، وإنما إجرامه أيضاً واستهتاره بحياة البشر إذ يقتل شخصاً بريئاً بدافع نزوة جنسية شاذة.

وهكذا أيضاً أخوه المأمون. حين انتصر العرب على الروم في إحدى معاركهم، أخذ المأمون يوزع الغنائم واحتفظ لنفسه بالملكة كرنة التي أسره جمالها وفروسيتها. إلا أن أبا الهزاهز كان قد أغرم بها أيضاً فطلب من الخليفة أن يتركها له مذكراً إياه بخدماته الماضية له. فغضب عليه المأمون وأمر بضربه مئة سوط، وذلك أمام الملكة كرنة. إلا أن أبا الهزاهز تمكن بعد ذلك من خطف الملكة كرنة وهرب بها إلى القسطنطينية حيث تزوجها. فسار المأمون بجيش إلى القسطنطينية للقبض على أبي الهزاهز. وبعد معارك دامية تدخل اللعين عقبة وأقنع المأمون بالانضمام إلى ملك الروم قراقد في مقابل استرجاع الملكة كرنة. فنشبت المعركة بين المأمون والروم من جهة، وعبد الوهاب والعرب من جهة ثانية.(٩٨) ترينا هذه القصة غضب الشعب على خليفة استغلّ سلطته المطلقة ليعاقب ويهين بطلاً عربياً من أجل امرأة رومية أحبها. ثم من أجلها أيضاً تحالف مع العدو ضد قومه المسلمين. ولم ينتهِ الأمر عند هذا، فبعد أن غادر المأمون القسطنطينية قصد ملطية، معقل عبد الوهاب، حيث نهب

(٩٦) **السيرة**، ٢: ٤٥١-٤٥٢.
(٩٧) **السيرة**، ٤: ١٦.
(٩٨) **السيرة**، ٤: ٢٧٦-٣١٣.

المدينة وأسر سكانها ونساءها، وفيهن علوى والقناصة، زوجتا عبد الوهاب . فزحف عبد الوهاب برجاله لمحاربة المأمون. وبعد معارك هائلة انتصر جيش عبد الوهاب وذات الهمة.(٩٩) فرغبة الخليفة بالاحتفاظ بأسيرة من أسرى الحرب دفعته إلى التحالف مع العدو ضد قومه، ثم إلى محاربة قومه والاستيلاء على نسائهم وممتلكاتهم كأنهم هم الأعداء. فكيف لا نستنتج أن الشعب قصّ هذه القصة ليعبر عن نقمته على خليفة استهتر بالقيم الأخلاقية والإنسانية، ثم خان قومه، فوق ذلك، متحالفاً ضده مع العدو، ومحارباً إياه، ناهباً وآسراً نساءه، بدلاً من أن يحارب العدو.

الخلاصة

واضح مما تقدم أن قصص الحب هذه لم تكن فقط قصصاً عن الحب رويت لتسلية الناس. إنها صورت، فوق ذلك، الدوافع إلى الحب ومقاييس الجمال بالنسبة للعرب في تلك الحقبة، كما صورت نواحي عديدة من الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وألقت أضواء على الذهنية والمعتقدات والعادات والتقاليد والقيم. هذا فضلاً عن تعبيرها عن الواقع الأليم الذي عاشه الشعب، عن نقمته وأمانيه ورغباته المكبوتة، فشكلت من هذه الناحية «تاريخاً للعرب» كما ادّعى رواتها، ولو أنها لم تشكل تاريخاً بالمعنى الذي قصدوا.

المصادر والمراجع

- **سيرة الاميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطّال وعُقبة شيخ الضلال وشومدرس المحتال** (أكبر تاريخ للعرب وخلفاء بني امية والخلفاء العباسيين) (٧ أجزاء)، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٨٠م/ ١٤٠٠هـ
- **سيرة الاميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة**، د. نبيلة إبراهيم، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
- سركيس، يوسف ليان، **المعجم**، القاهرة، ١٩٢٨–١٩٣٠، ٢٠٠٨

ENCYCLOPEDIA OF ISLAM, (NEW EDITION), DHU 'L HIMMA

BROCKELMANN, Carl, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, Leiden, E.J.Brill, 1943-1949, S II, P. 65.

(٩٩) **السيرة**، ٤: ٣٤٢–٣٦٩.